المحاضرة الثامنة (08): قضية التأويل بين القديم والجديد

مفهوم التأويل:

أوّل الكلام وتأوّله: دبّره وقدّره وفسّره.

وحدّدَهُ ابن رشد بأنه "إخراج دلالة اللفظ من الدلالة الحقيقية إلى الدلالة المجازية، من غير أن يخلّ ذلك بعادة لسان العرب».

- والتأويل في اللغة العربية ارتبط بفكرة الرجوع إلى الأصل، لما شكله الأصل في ثقافتنا من سلطة، أي الأصل كمصدر للمعرفة.
- وفي اللسانيات: التأويل هو الفعل الناتج عن إعطاء معنىً لعلامة أو حركة أو كلام فنحن نبحث عن المعنى العميق للنص فيما وراء المعنى الظاهر (المعنى الحرفي).

وهذا المعنى العميق قد يكون معنىً "روحيًا" أو "مجازيًا" أو معنىً "باطنيًا دينيًا". ففي عُرف التأويل أنّ قراءة واحدة لا تكفي لبيان المعنى ووضوحه

قدم قضية التأويل في النقد العربي القديم:

أدرك النقد العربي منذ وقت مبكر – ومن قبل أن يصبح ذلك تقليعة يتناقلها اليوم نقاد الحداثة وما بعد الحداثة – أن النص الأدبي غنيّ بالدلالات، وأنه من أجل ذلك قد يحتمل وجوهاً متعدّدة من التأويل، وقد يتسع فيه مجال التفسير والقراءة، وإبداء الرأي.

الحجاج صاحب حرسه أن يطوف بالليل فمن رآه بعد العشاء يكران ضرب عنقه. فطاحت ليلة من الليالي فوجد ثلاثة فتيان يتميلون وعليهم أمارات السكر. فأحاطت بهم الغلمان. وقال لهم صاحب الحرس: من أنتم خالفتم أمر المؤمنين وخرجتم في مثل هذا الوقت. فقال احدهم:

أنـــا ابـــن مـــن دانـــت الرقـــاب لـــه ... مـــا بـــين مخزومهـــا وهاشـــمها

تأتيـــه بـــالرغم وهـــي صـــاغرة ... يأخـــذ مـــن مالهـــا ومـــن دمهـــا

فأمسك عنه وقال: لعله من أقارب أمير المؤمنين.

ثم قال للآخر: وأنت من تكون. فقال:

أنـــا ابـــن مـــن لا تنـــزل الـــدهر قـــدره ... وإن نزلـــت يومـــاً فســـوف تعـــود

تـــرى النـــاس أفواجـــاً إلـــى ضـــوء النـــار ... فمـــنهم قيـــام حولهـــا. وقعـــود

فأمسك عنه وقال: لعله ابن أشرف العرب. ثم قال للآخر: وأنت من تكون. فأنشد على البديهة:

أنـــا ابـــن مـــن خـــاض الصـــفوف بعزمـــه ... وقومهـــا بالســـيف حتـــى اســـتقامت

وركبـــاه لا نفـــك رجـــلاه منهمـــا ... إذا الخيـــل فـــي يـــوم الكريهـــة ولـــت

فأمسك عن الآخر وقال: لعله ابن أشجع العرب واحتفظ عليهم. فلما كان الصباح رفع أمرهم إلى أمير المؤمنين فأحضرهم وكشف عن حالهم. فإذا الأول ابن حجام. والثاني ابن فوال. والثالث ابن حائك. فتعجب من فصاحتهم وقال لجلسائه: علموا أولادكم الأدب فوا لله لولا فصاحتهم لضربت أعناقهم

محاضرات في النقد الأدبي القديم - مسعود بن شايب

التأويل وأقسامه في النقد العربي القديم:

جاء في الوساطة في نقد علي بن عبد العزيز الجرجاني لبيت أبي الطيب المتنبي:

ما بقومي شَرُفتُ بل شَرُفوا بي ... وبنفسي فَخَرتُ لا بجُدودي

قوله: ((فختم القول بأنه لا شرف له بآبائه. وهذا هجو صريح. وقد رأيت من يعتذر له فيزعم أنه أراد: ما شرفت فقط بآبائي، أي لي مفاخر غير الأبوة، وفِيّ مناقب سوى الحسب. وباب التأويل واسع، والمقاصد مغيبة. وإنما يُستَشهد بالظاهر، ويتّبع موقع اللفظ..[1].))

وأورد ابنُ رشيق بيتَ امرئ القيس في وصف فرسه:

مكرٍّ مفرٍّ مقبلٍ، مدبر معاً ... كجُلمود صخرٍ حطَّه السيلُ من عَلِ

تحت ما سماه ((باب الاتساع)) فذكر أكثر من تفسير له، ثم عقّب على ذلك هذا التعقيب التكيّ، فقال: ((يقول الشاعر بيتاً يتسع فيه التأويل، فيأتي كل واحد بمعنى، وإنما يقع ذلك لاحتمال اللفظ، وقوته، واتساع المعنى.

وزاد البغدادي في خزانة الأدب على ما أثبته ابن رشيق من توجيهات لبيت امرئ القيس، ثم علّق على ذلك قائلاً: ((هذا ولم تخطر هذه المعاني بخاطر الشاعر في وقت العمل. وإنما الكلام إذا كان قوياً من مثل هذا الفحل احتمل لقوته وجوهاً من التأويل بحسب ما تحتمل ألفاظه، وعلى مقدار قوى المتكلمين فيه.

- ✓ منذ القدم ما زالت نظرية التلقي والتأويل محل نقاش وجدل.
- ✓ على الرغم من أن علماء الغرب هم من وضع أسس هذا العلم؛ إلا أنه يمكن القول بأن العرب اهتموا كذلك بأهمية تلقي النصوص وتأويلها.
- ✓ انصب اهتمام العرب في هذا المجال على تلقي النص الديني؛ لأن فيه نصوصا تفهم منذ الوهلة الأولى؛ وأخرى تحتاج إلى الاستعمال العقلي.
- ✓ أما في المجال الأدبي فكانت ظروف التلقي الأدبي تفرض على المبدع أن يعرض إبداعاته بنفسه على أكبر عدد من المتلقين في الأماكن المتاحة لذلك؛ وأقيمت الأسواق الأدبية لإلقاء الشعر والمحافل الجماعية لسماع الخطباء؛ مثل سوق عكاظ أو سوق المربد وغيرهما.
- ✓ ارتبطت عملية التلقي والتأويل بردود أفعال النقاد تجاه النصوص الأدبية؛ النثرية منها والشعرية؛ التي أثارت فيهم كثيرا من المفاهيم النقدية مثل: فكرة الموازنات والسرقات والوساطات.
- ✓ في مرحلة قبل التدوين كان التلقي سماعيا، وكان للإنشاد الأثر الأكبر. وفي مرحلة التدوين أصبح التلقي قرائيا، مما يعطي فرصة للتأمل والتذوق والتأوّل.
- ✓ بعد ذلك أقيمت المسارح ودور السينما والمعارض لإيصال المنتجات الجديدة لهذه الأشكال الفنية المستحدثة إلى المتلقين. ولا شك أنّ لها أثرها في توجيه النصوص، وتأثيرها على تأويل القارئ.
- ✓ وبعد ذلك أصبح التلقي الأدبي والفني فرديا أو شخصيا بفضل الكتاب والصورة ثم بفضل الإذاعة والتلفزيون وبفضل التطور الهائل لوسائل الإعلام المتطورة مثل الإنترنت وغيرها .
- ✓ وقد فرض التلقي الأدبي على المتلقي ألوانا معينة من فنون القول التي تتماشى مع عملية الجهر في الأداء؛ كما فرض هذا الأمر نفسه على النقد والبلاغة؛ فظهر الحديث عن مقتضى الحال؛ ومطابقة المقال للمقام؛ كما

محاضرات في النقد الأدبي القديم - د. مسعود بن سايل

ظهر الحديث عن هيئة الخطيب وما يتخذه من صفات؛ وظهرت فنون الإلقاء المؤكدة على مخارج الحروف والألفاظ؛ والسجع وأشكال أخرى من أشكال الصنعة القولية؛ وكان من الضروري أن تكون اللغة هي الوعاء للإيقاع الصوتي وهي الأساس لإحداث الجماليات الفنية المطلوبة؛ ولإثارة الأحاسيس وشحنة الانفعالات القابعة في نفسية المتلقي وإعادة استرجاع المسموع .

✓ وفي الثقافة الإسلامية نجد تعددية القراءات للنص القرآني، حيث قال الرسول عليه الصلاة والسلام: «القرآن ذلول ذو وجوه فاحْمِلُوهُ عَلَى أحسن وجوهه». لقد أكد عليه السلام على العلاقة الوطيدة والمهمة بين القرآن الكريم وقارئه؛ منبها إلى أهمية هذه الظاهرة، مؤكدا على ضرورة الأخذ بأحسن الأوجه في حال تعددها، لأن أحسن الأوجه في اللغة يكون دائما هو الوجه الأفضل والأصح والأصوب والأقرب إلى الحقيقة والواقع ويوافقه في ذلك علي بن أبي طالب الذي يقول: القرآن حمّال أوجه.

✓ أسباب تعدد القراءات والتأويلات: هو وجود المترادفات في اللغة العربية التي تُحمل على معانٍ حسب سياق الأسلوب الذي وضعت فيه، وتعدد الأوجه النحوية وتعدد المعاني للكلمة الواحدة أو العبارة الواحدة أحيانا، إن النص الأدبي في نظرهم ليس ثابتا.

✓ مع تطور العصور لم تعد النظرة إلى النصوص الأدبية قائمة على صورة فنية نهائية، وإنما اعتمدت وراهنت على ذائقة المتلقي ومدى تفاعله مع هذه النصوص؛ وملء ما ظل مبهما فيها؛ وهي التي سماها دعاة نظرية التلقي والتأويل بملء الفجوات التي يتعين على المتلقي ملؤها.

✓ ولهذا السبب نجد النقاد القدماء قد اختلفوا في كثير من القصائد الشعرية؛ حيث أنهم يتقبلون الشعر الجيد الذي يلقى قبولا عند السامع ويرفضون الشعر الرديء الذي تنفر منه آذان المتلقين، وهذا هو الذي يعرف عند الهيرمنيوطيقيين بـ"تغير الأفق" واندماج الأفق" والمقصود بتغير الأفق هو تعارض القارئ مع ما يوحي به النص الأدبي؛ أما اندماج الأفق فهي علاقة التجاوب بين تاريخية النص وإحالته إلى الحالة الراهنة.

✓ وقد أدرك كل من الجاحظ والجرجاني والقرطاجني وابن قتيبة البُعْدَ المهم والمكانة الحقيقية للمتلقّي في الظاهرة الأدبية، فالنص الأدبي يحتاج لكي يحقّق وجوده ويؤتي أُكلَه إلى مُبدِع قادر على توظيف إمكانات اللغة والبلاغة، ومتلقٍّ بارع قادر هو الآخر على فكّ شفراته وتحسُّس مواطن القوّة والضعف فيه.

✓ بهذه الرؤية للدور الذي ينبغي للمتلقّي أن يلعبه في المعادلة الأدبية تتحقّق العلاقة التكاملية بين الكاتب والمتلقّي، لتصبح عملية التواصل الأدبي مرهونةً بمستوَى ودرجةِ العلاقةِ بين طرفي المعادلة، وهما: «المنتج» و«المتلقي» «ونستحب له أيضا أن ينزل ألفاظه في كتبه فيجعلها على قدر الكاتب والمكتوب إليه، وألا يعطي خسيس الناس رفيع الكلام، ولا رفيع الناس وضيع الكلام» وفي السياق نفسه يسير ابن طباطبا.

التأويل وقصد المتكلّم:

ولكن النقد العربي – كما هو واضح – يحترم النص ودلالاته اللغوية، وذلك مقدَّم عنده على ما يُسمّى بمقصدية المؤلف. فقد ردّ الآمدي – صاحب كتاب الموازنة بين الطائيين: أبي تمام والبحتريّ – على تهمة وجّهها إليه أنصار أبي تمام، بأنه لم يفهم ما قصده شاعرهم من كلامه، بهذه العبارة النقدية المهمة، التي تضع قاعدة موضوعية دقيقة للتأويل:

قال الآمدي: ((ليس العمل على نية المتكلّم، وإنما العمل على ما توجبه معاني ألفاظه..))؛ وهي عبارة تُستنبط منها – على وجازتها – مجموعةٌ من الأحكام التي تتعلّق بتأويل الكلام أو تفسيره.

ـ التلقي و التأويل في النقد الحديث

✓ إن القراءة نشاط مكثف وفعل متحرك، وتوليد يحاول معه القارئ استكشاف وسبر أغوار النص وهي تسير في اتجاهين: من النص إلى القارئ، ومن القارئ إلى النص، تقوم وتنهض بين عمليتين: التلقي والتأويل. فالتلقي هو نقل المعنى من داخل بنى النص الصغرى والكبرى، وعلاقات تلك البنى بالنسق والأنساق داخل النص نفسه، كما يقول البنيويون إلى المتلقي، وهو ما يعتبر تمهيدا بدرجة ما لمدرسة التفكيك التي بدأها جاك دريدا؛ أي هو العملية التي تتم عند القارئ أو المتلقي من قراءة النص والتعرف على معانيه وأبعاده وعلاقاته.

✓ وقد انصب اهتمام نظرية التلقي على الكيفية التي تم بها تلقي الخطاب الأدبي عبر الزمن؛ ومحور هذا الاهتمام هو المتلقي وحكمه على النص الأدبي في فترة تاريخية؛ وهو ما يبرر اعتمادها على المناهج التاريخية والاجتماعية. أما التأويل: فهو تحديد المعاني اللغوية في العمل الأدبي من خلال التحليل، وإعادة صياغة المفردات والتراكيب؛ ومن خلال التعليق على النص، وهذا يركز على مقطوعات غامضة أو مجازية يتعذر فهمها؛ أي توضيح مرامي العمل الفني ككل، ومقاصده باستخدام وسيلة اللغة، بتركيزه على شرح خصائص العمل وسماته مثل، النوع الأدبي الذي ينتمي إليه وعناصره وبنيته وغرضه وتأثيراته.

✓ ويعتقد أن النص يبني بكيفية مسبقة استجابات قرائه المفترضين ويحدد بكيفية قبلية سيرورات تلقيه الممكنة، ويثير كل واحد منها بفضل قدرات التأثير التي تحركها بنياته الداخلية؛ وتنتهي مهمة المرسل بنهاية رسالته/النص، ويطلب إليه بعد ذلك الاختفاء أو الموت؛ لأن بموته تكمن يقظة المتلقي وحياته.

✓ وأبرز محاور نظرية التلقي هو «أفق توقع» القارئ في تعامله مع النص، فقد تختلف المسميات ولكنها تشير إلى شيء واحد: ماذا يتوقع القارئ أن يقرأ في النص؟ وهذا التوقع وهو المقصود تحدده ثقافة القارئ وتعليمه وقراءاته السابقة، أو تربيته الأدبية والفنية؛ والقارئ الذي يعنيه منظور التلقي هو القارئ المثقف الذي ينطلق في تفسيره للنص من وعيه بأفقه وآفاق الآخرين.

حدود التأويل: حاول أمبرتو إيكو أن يجعل حدودا للتأويل فقال:

الحد الأول: الترجيع إلى الأصل

الحد الثاني: تجاوز المعنى الظاهر

الحد الثالث: الدخول إلى المعنى الباطن

الحد الرابع: تفجير النص بالدلالات.

الحد الخامس: من التأويل إلى التقويل

وخلاصة القول: إن نظرية التلقي والتأويل في النقد الحديث تقوم وتنهض على أن كل نص يقوم على مبدع يبدعه؛ وقارئ يقرؤه؛ يتوازى مع مبدعه؛ وأن النص لا يحيا إلا بفعل الحال الثانية التي تتصوره؛ وهي القراءة المنتجة التي ينشأ عنها إبداع نص آخر؛ من نوع آخر؛ على أنقاض النص الأول؛ التي غالبا ما تفضي إلى نص ثالث يعرف بنقد النقد.

محاضرات في النقد الأدبي الحديث مسعود بن ساري